من تراب الطريق (٥٤٢)

الأفكار والرغبات بين القرارات والعزوم والاختيارات! (*) (١)

الفكرة حادث ، لم يكن ثم كان ، وهذه الفكرة تحدث فى وعينا بلا زمن أو مكان معينين ، ولكن حدوثها يعنى ويتمثل احتمالاً فى زمان ما ومكان ما فى فرصةٍ ما .. قريبة أو بعيدة أو مستحيلة فى نظرنا . وكل فكرة غامضة أو واضحة بسيطة أو معقدة لها فى الوعى ظهور ذاتى بحدود محددة واضحة أو مبهمة ، تبقى زمناً يقصر أو يطول ، وقد تستدعى هذه الفكرة غيرها تداعياً منها أو بالبناء عليها ، أو لأن الفكرة المستدعاة تشبهها أو تعارضها أو تكون نقيضاً لها يرد عليها أو يردها .. وقد يطرأ طارئ بخاطر أجنبى كلية ، يدفع الفكرة بعيداً فى الذاكرة أو بعيداً فى أعماق النسيان أو العدم .

هذا ولا ينقطع سيل الأفكار وتتابعها فى وعى الحى أثناء يقظته .. ويتوالى بنظام تارة وبغير نظام تارات أخرى ، وقد يقع شىء من هذا التتابع أثناء النوم من خلال الأحلام ؛ فوعينا تيار جار ، تتوالى فيه أفكارنا كنقاط الماء فى مجرى النهر .. يجمع فى تياره ومجراه هذه الأفكار.. تجمعت هذه الأفكار أو تفرقت.. توافقت أو افترقت ، تبعاً لتيارات الهواء وانحدارات ومنعطفات النهر وما يكون فى مجراه من انسياب أو عوائق أو التواءات أو أجسام طافية أو نباتات نامية فى مجراه .. ووحدة ما بين هذه الأفكار هى وحدة الوعى الذى باتت منه وفيه ، والتصقت به وفقدت الشعور بمصدرها الأول

(*) المال ٢١/ ١١/ ٢٠١١

الخارجى كائناً ما كان .. وهى بالنسبة لبعضها البعض دائماً شيع وتفاريق تبدو وتختفى ، وتدنو وتبتعد ، وتلمع وتنطفئ وتبقى فى الذاكرة أو يلحقها النسيان .

والإرادات قرارات فورية التنفيذ لأحداث أو عزوم مستقبلة التنفيذ القريب أو البعيد ، أو اختيارات حالة التنفيذ عاجلة أو آجلة بين أحداث كلها ممكنة فى نظرنا . وقراراتنا الفورية اليومية لا حصر لها .. لا نشعر فى معظمها بالفارق بين الحدث ذاته وبين القرار الذى سبقه فى وعينا .. أما عزومنا فيسبق فيها قرارنا ويتأخر فيها التنفيذ وقد لا يتحقق . أما اختياراتنا فقد تصاحبها الفورية أو يرد عليها التأجيل ، فتقع فوراً تارة ، مصحوبة بحدث حصل ، وتارة نفترض وقوعها فى وقت آت قد يأتى وقد لا يأتى .

والإرادات كلها تفترض قدراً من إصرارنا على تنفيذها .. وهذا حاصل فى القرار الفورى وفى الاختيار الفورى ومفترض قيامه فى الوعى فى انتظار تنفيذ العزوم والاختيارات التى قدرنا تنفيذها فى مستقبل قريب أو بعيد .

أما الرغبات فلا تعلن عن نفسها فى وعينا إلاَّ فجأة ، وفى إرادات وعلى صورة قرار أو عزم . إذ إن الاختيار لحدث أو أحداث فى شىء أو شخص أو موقف قد يحصل فى الخيال المحض ولا يجاوز التصور ، وقد يكون لتصور الاختيارات واقع يماثل أو لا يماثل ما تخيلناه بشأنها .

ويبدو أن وعينا كما أسلفنا هو الذى ينتسب دائماً إلى ذواتنا .. إلاَّ فى الأحوال الشاذة أو فى بعض الأحلام ، وهو يعطى الشعور بالانتساب إلى ذواتنا لكل الأفكار والرغبات والمخاوف ، ولكل القرارات والعزوم والاختيارات المعزوة إلى أنفسنا .. والتى تجرى بلا انقطاع فى مجرى الوعى

فى خليط مندفع متفرق يتزاحم ويحل بعضه محل بعض . وما يبدو لنا ثابتاً من هذا الخليط الدائم الاندفاع ، هو عادات فكرية أو عاطفية نقلها إلينا الوعى فى صورة مصدقات المحيط الذى نعيش ضمنه ، أو فى صورة معارف مصطلح عليها تعلمناها فى نوع من أنواع الموالاة والمتابعة .

أما المواهب التى يتميز بها أفراد على الكثرة ، فهى ذات أصل غيبى ، قد يكون موضوعها حدة الذكاء أو شدة الحفظ ، وقد يكون موضوعها غير ذلك .. وهى ليست بنات وعينا ، وإنما هى استعدادات خاصة جداً قابلة للنمو والتطوير بالعناية والمران ، أو للتقلص والتدهور بالإغفال والإهمال .. وهذه الاستعدادات الخاصة جداً يتعامل معها وعينا بأساليبه التى ذكرناها ، والتى قد تلائمها فتكرسها وتثريها ، وقد تعارضها وتضر بها وتفسدها .. تبعاً لملاءمة أوعدم ملاءمة ظروف الزمان والمكان التى قد تظاهرها أو تقاومها .

ومع تعامل وعينا باستمرار بأساليبه التى أشرنا إليها ، التى تتدفق وتتدافع وتتزاحم بلا توقف ما دمنا أحياء لم يتوقف وعينا عن نشاطه .. فإن ما يتناوب منها على صفحة وعينا قد يكون أحياناً شعوراً بعدم ثبات محتوانا الفكرى والعاطفى برغم شعورنا بدوام ثبات ذات كل منا ، وبرغم صعوبة احتفاظنا العقلى الواقعى بقيمة وأهمية ما نظنّه ولا نكف عن إعلانه .. من تمسكنا بمبادئنا واتجاهاتنا ومن تعرضها بلا انقطاع إلى قليل أو كثير من الحيل والحيود والانحراف.. وعجزنا عن منع ذلك .. وربما كان هذا كله وراء ما هو سائد بين الآدميين سيما بين الخاصة وأهل العلم من التواقر أو التصلب الذى يقرب من التكلف والافتعال !